قصتان

. محمد ديبو .

محمد ديبو

كاتب سوريّ. صدر له في الشعر: **لو يخون الصديق** (فاز بجائزة دمشق عاصمة الثقافة العربيّة)، وفي القصة: **خطأ انتخابيّ** (بيروت، ٢٠٠٨).

«المدينة تحت رحمة الله»

هذا ما يقولونه، إذ تدخل المدينةُ نفقَ الرعب والموت، مذ سيطروا، ليفرضوا فقههم على العقل، فيجبروا الرجالَ على إطلاق لحاهم، ويمنعوا النساءَ من العمل والخروجِ، ويغلقوا دُور الكتب والسينما والمسرح والرقص.

توقّفت الحياة، وبدت المدينة أشبهَ بطللٍ للبكاء، وغدا الناسُ أشباحًا استسلمتْ لليأس.

في مدينةِ الموت، داخلَ مسرحٍ مغلق، كانا يتجادلان ويعانقان الخراب:

. هل الله يمنع لقاءنا حقًّا؟

. بل هو يباركُه.

. لِمَ نحن إذًا في هذا السجن؟

. هذا سؤال سياسيّ، لا دينيّ.

. هل نخرج؟

. هل جننت؟ كيف نخرج والقتلُ يتربّص بنا؟

. سنخرج!

خرجا بخطًى متردّدة. تلتفتُ إلى الخلف بخوف.

. لا تنظري نحو الموت.

خاصرها، ولفّت عنقه بشالِ ساعدها البضّ. صعدا باتّجاه الطريق الموصل إلى شجرتهما، حيث كانا يلتقيان ويمارسان الحب.

قبل وصولهما إلى الشجرةِ بعشرين مترًا، ناداهما رجلان أطلقا لحاهما وحلقا شاربيهما.

. قفا... وابتعدا بعضكما عن بعض.

تبادل الرجل والمرأة النظرات، ثم تابعا سيرَهما، حتى بلغا شجرةَ الحبِّ وتعانقا.

أطلق الرجلان الرصاصَ في الهواءِ لتفريقهما.

. ابتعدا... وإلا أطلقنا النار.

عانقتْ شفتاه شفتيها، وبعثرتْ يداه شعرَها.

اخترقتْ رصاصةٌ فمَها، وانجدل اللسانان في برزخِ الحبّ. اخترقتْ رصاصةٌ رأسه، ليتحوّلا إلى طائرين من الشمع، متّجهين نحو شمسِ الغياب.

...

نظر إليها وقال:

- سنخرج متعانقيْن.

- ولكنّ قد يقتلوننا!

نظر إليها صامتًا. فهمتْ ما ينوي وقالت:

- نعم، قد يقتلوننا، لكننا سنحيا.

وخرجا.

مرافئ الصمت

عندما يتكلّم الصمتُ، يُفضَحُ الحبُّ.

كان الصمت يتواطأ معنا. نسرّب شيئًا من مشاعرنا بين فواصله، كمشروع حبٍّ قادم، ظنًّا منا أنّ الحبَّ نهرٌ يمكن التحكّم بجموح صهيله. ولكنّ جرفنا اللعبُ إلى هاوياتٍ لا قرار لها.

أهو منطقُ الصمت، أم منطقُ الحبّ؟

مَن منهما تواطأ على جرحنا المفتوح لاحتمالاتٍ معروفةٍ، نتجاهلها عمدًا؟

...

- غدًا أصارحه.

- غدًا أصارحها.

لكنّ ما إنْ يلتقيا حتّى يتبعثر الحبُّ رذاذًا بين ركام الكلام.

يستران الحبَّ بشرشف الأدب. فإذا اقتربَ المجازُ من الواقع، هربا عائديْن إلى الأدب.

بعد كلّ لقاء، يقول كلٌّ منهما لذاته:

- أكان يلمّح؟

- أكانت تعني ما قالته؟

يؤكّدان الحبّ وينفيانه. يتأرجحان على موانئ الاحتمالات، ويهدهدان شوقيْهما غلمةً واكتواءً.

يضعان خططًا لاختراق دفاع الأدب.

...

- قلتَ لي في المرّة السابقة إنّ الشعراء يعشقون المستحيل، وإنهم في طريقهم إليه يصبحون كمجانينَ عقلاء. فهل يعشقون النساءَ عشقَهم للجنون؟

تحاول استدراجه إلى فخٍّ لا تعرف إنْ كانت تنصبه لنفسها أو له.

- الجنون والنساء والشعر ثلاثيٌّ لا يفترق.

- كيف؟

- كلّ امرأةٍ فيها شيءٌ من ذبذبات الجنون، وكثيرٌ من كبرياء الشعر. ولا شِعْرَ ما لم يؤنّثْ ويتعمّدْ بنهد اللغة ويصل بصاحبه إلى مرافئ الجنون. ووراء كلّ جنونٍ أنثى تحملُ الشعر بين نهديها وسامًا.

- إنّها هلوسات الشعراء!

- وماذا عن هلوسات الروائيّات العاشقات؟!

- ماذا تعني؟ قالت بغنج أنثى عاشقة.

- لا شيء. ولكنّ لماذا تسألين هذه الأسئلة؟ ما بك الليلة؟

«أحقًّا لم يشعرْ ما بي؟» قالت في سرّها دون أن تعلّق ارتباكها.

أحسّ بقلبه ينبّهه إلى هولِ ما أحدثه سؤالُه من خراب.

- أنا آسف.

- لا داعي للأسف. في حقيقة الأمر أكتبُ روايةً بطلُها شاعرٌ يحبُّ فتاةً تكتب الرواية. وبوصفه شاعرًا فإنه يسعى دائمًا إلى بناءِ الخراب، وهي كأنثى عاشقة تريده هو.

ولكونك شاعرًا يمكن أن تعطيني رأيك: إلى أين يوصلهما هذا الحبُّ؟

عادت إلى برزخ الأدبِ، ساكبةً الماء على نيران القلب.

- وهل هي قصةٌ حقيقيّة؟ سأل، محاولاً استدراكَ خطإه ومنْعَ الماء من التسلّل إلى تراب القلب.

- لا، لا، مجرّد رواية.

ندمتْ على استتارها بشرشف الأدبِ قائلةً: إلى متى؟

رغم إحساسها بالخطأ، وشعوره بالخيبة، كان كلٌّ منهما قد أمسك بطرفِ الحبّ عند الآخر، وأحسّا - بغريزة العاشقين - أن سدًّا من سدود الصمت انهار بينهما.

...

نَفدَ صبرُ الصمت مِنْ تستّره. اختنق الأدبُ من خفقان قلوبٍ تكتب عن الحبّ وتخاف مقاربته، فقرّر فتح كلّ السدود في وجهيهما ذاتَ غفلة.

تُمسك سمّاعةَ الهاتف وتتراجع.

يَرفع سمّاعة الهاتف، ولكنه يتراجع.

أخيرًا تجرّأ وتلفن لها.

رفعت السمّاعة قبل الرنين. الخطّ مشغول.

تلفنتْ بدورها. الخطّ مشغول.

رنّ الهاتف. رفعت السمّاعة متلهّفةً:

- ألو..

- هل كنتِ تكلّمين حبيبًا؟

- بل كنتُ أكلّم قدرًا انتظرتهُ قبل أن أولد.

- وهل جاء؟

- أشمُّ رائحته تعبقُ في صدري.

- أين تذهبين اليوم يا قدري؟

- إلى مرافئ الجنون.

- ما رأيك أن نَحْضرَ مسرحية «الاغتصاب» التي يُخْرجها جواد الأسدي، وبعدها نقرّر أين نذهب؟

- جميل. جواد مشروعُ جنونٍ لم يكتملْ بعد، ومشروع حبٍّ خائب ووطن لن يكتملَ إلا خرابًا.

- نلتقي الثامنة والربع.

...

أمام مسرح بابل في الحمرا كان ينتظرُ سرابه، وبقايا عمرٍ مهدور.

قلبه يخفقُ كطفلٍ صغيرٍ منتظرًا ما وُعِدَ به.

أطلّ السرابُ المؤنّث. الحبّ يتقدّمُ، والأدب يُقصى. طفل وطفلة يتوهّجان باكتشافِ روحيهما وجسديهما. الوجهان تخلّيا عن شراشفهما، والقلبان انعتقا من قيودهما.

تلاقت الأيدي المشبعةُ بالحرمان. التحمت الشفاهُ المعتّقة منذ آلافِ الدهور. حطّ الحمام الأنثويُّ على الصدر الرجوليّ، غارسًا مناقيره في غابةٍ سوداء.

خاصرها بيده وعانقته بيدها. أدارا ظهريهما للمسرح وابتعدا إلى شوارعَ لا نهايات لها. كان الأدب يجلس على الرصيف يتابعهما بعينين مقهورتين، وقلبٍ مفعمٍ بالخذلان. وكان الحبّ يعزّي صاحبه الأدب قائلاً:

- قد تهزمني على الورق، لكنّ معركتي هي في الحياة، وهنا لا مكان لك. عدْ يا صاحبي، واقنعْ بفتات الحكايات!